

## بريطانيا العظمى والشرق الأدنى

لا يأتي الكاتب بمجديد حين يقول إن خطورة الصّلات بين بريطانيا العظمى والشرق الأدنى إنما أخذت تظهر وتشتد في الأعوام الأخيرة من القرن الثامن عشر ، حين عظم الخلاف بين فرنسا النائرة المجددة وبريطانيا العظمى المعتدلة المحافظة ، وحين اعتزم بوناپرت أن يقطع على البريطانيين طريقهم إلى الهند فأغار على مصر ، وهم أن يغير على الشرق الأدنى كله ، ثم أدركه الإخفاق ، فعاد إلى فرنسا وترك جيشه الذي لم يلبث أن صالح خصومه وعاد هو أيضاً إلى وطنه الثائر المضطرب .

منذ ذلك الوقت أصبح الشرق الأدنى ميداناً للتنافس بين الدولتين الغربيتين . ولكن مؤثرات مختلفة دعت إلى أن يكتب الفوز السياسي والاقتصادي والمسكري أيضاً لبريطانيا العظمى في هذا الميدان . فقد شغلت فرنسا بشؤونها الداخلية من جهة وبشؤون أوربا من جهة أخرى معظم القرن التاسع عشر ، قامت فيها الإمبراطورية الأولى وما شبّه نابوليون من الحروب ، وانتهت بالكارثة التي أرسلت نابوليون إلى « سانت هيلين » وأخضعت فرنسا لاحتلال المنتصرين . ثم جعل الصراع بين الثورة الفرنسية والنظام القديم يأخذ أشكاله المختلفة المعروفة ، حتى أنشئت الجمهورية الثانية ، ثم الإمبراطورية الثانية ؛ ثم كانت الحرب مع بروسيا ، ثم كانت الهزيمة واحتلال الألمان لفرنسا ، ثم كانت الجمهورية الثالثة ، وانجح الفرنسيون إلى إنشاء إمبراطوريتهم في أفريقيا وآسيا . ولكنهم في كل هذه الفترة لم يخاصموا البريطانيين في شؤون الشرق الأدنى إلا قليلاً ، كما أنهم لم يماولهم في هذه الشؤون إلا قليلاً .

وفي أثناء هذه الفترة أيضاً تطور الشرق الأدنى نفسه تطوراً داخلياً خطيراً ، أيقظه اختصام الفرنسيين والبريطانيين من حوله واتخاذهم موضوعاً للنزاع ؛ فنشأت الدولة المصرية ، وكان من الصراع بينها وبين الترك ما زاد يقظة الشرق

الأدنى قوة وبأساً ، وجملة عناصره أساسياً فعالاً في الخصومة بين الفرنسيين والبريطانيين .

وليس من شك في أن سياسة محمد علي الكبير كانت عاملاً بعيد الأثر في خصومة الدولتين الغربيتين . وليس هنا موضع التفصيل للتنافس البريطاني الفرنسي وتأثير الشرق الأدنى نفسه في هذا التنافس . ولكننا نستطيع أن نلاحظ أن الصلة بين بريطانيا العظمى والشرق الأدنى قد مرت بأطوار مختلفة منذ أغار بوناپرت على مصر إلى الآن . وكان مظهر بريطانيا العظمى في الطور الأول من هذه الأطوار مظهر الصديق للدولة العثمانية المحافظ على سلامتها الذي يريد أن يرد عنها عدوان الفرنسيين . ثم كان مظهرها في الوقت نفسه مظهر الصديق للشرق ولمصر خاصة ، فهو قد أعان على تحرير مصر من الاحتلال الفرنسي ومهد بذلك لإنشاء الدولة المصرية الحديثة . ولأمر ما لم تلتق مصر نفسها في أحضان هذا الصديق الحميم المعين ، وإنما ظلت متجهة إلى فرنسا تستعينها على ما أخذت به من أسباب الحضارة الحديثة ؛ فقد كان اعتماد محمد علي الكبير وخلفائه على الفرنسيين الفرنسيين في شؤون الحرب والري والصناعة والزراعة أوضح من أن يحتاج إلى بيان ، وانتهى هذا كله بما كان من إنشاء قناة السويس ، وبما كان من احتيال البريطانيين حتى ظفروا بنصيب من أسهم هذه القناة وأصبحوا يستطيعون أن يقولوا كلمتهم في شؤون هذه الشركة .

والظاهر أن ظروف الشرق الأدنى ونشاط الفرنسيين وفتور المصريين في التقرب إلى الإنجليز واختلاط الشؤون المالية في مصر ، كل ذلك قد أعان على انقضاء الطور الأول من أطوار الصلة بين الشرق الأدنى وبريطانيا العظمى ، وهو طور التودد من بعيد والمحافظة على مصالح الإنجليز في حزم وعزم ويقظة ، ولكن في أناة وتحفظ واحتياط . حتى إذا جد الجد وأصبحت مصر بعد احتقار القناة وتقريب المسافة بين الشرق والغرب نقطة الخطر الحساسة في طريق الإمبراطورية البريطانية ، رأينا الإنجليز ينتهزون الفرص حيناً ويخلقونها أحياناً ، حتى إذا واتتهم الفرصة أغاروا على مصر ليقمعوا الثورة فيها ويردوا الأمن إلى نصابه ، ثم ليعودوا بعد ذلك من حيث أقبلوا . ولكنهم قمعوا الثورة وأقروا الأمن وأعجبهم الجؤ فاقاموا وما زالوا مقيمين إلى الآن .

وكذلك بدأ الطور الثاني من أطوار الصلة بين البريطانيين والشرق الأدنى

في هذا العصر الحديث ، هذا الطور الذي يمتاز بالتدخل المباشر في أدق الشؤون المصرية وبمراقبة شؤون البلاد الشرقية العربية الأخرى من قرب . حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى ظهر للإنجليز وحلفائهم أن بريطانيا العظمى قد عرفت كيف تحتاط لمستقبلها وأحسنت انتهاز الفرصة ؛ فقد سيطرت أثناء الحرب على طرق المواصلات الإمبراطورية وضمنت وسائل نقل الجند والمؤونة ، وساهمت بذلك أعظم مساهمة في كسب الحرب وتحقيق النصر .

وفي هذا الطور كان التدخل البريطاني في الشؤون المصرية خاصة والشرقية عامة قد أخذ يغير قلوب الشرقيين وميوههم نحو الإنجليز ونحو الفرنسيين جميعاً . فلم تكن بريطانيا العظمى في هذا الطور هي الصديق الذي ينظر من بعيد ويظهر الاستعداد للمعونة والتأييد حين يحتاج الشرق إلى المعونة والتأييد ، وإنما كانت خصماً معتدياً يحتل قلب الشرق الأدنى ويتحكم فيه ويفتخر الفرض لبسط سلطانه على البلاد المجاورة . وأخذت فرنسا مكان بريطانيا العظمى ، فأصبحت صديقاً حميماً ليس له مطمع سياسي ، لا يحتل أرضاً ولا يتدخل في شؤون الحكم ، وإنما يظهر العطف ويؤجج بالتأييد . وجعل المصريون والشرقيون يخاصمون بريطانيا العظمى خصماً مختلف قوة وضعفاً باختلاف الظروف ، ويستعينون في هذا الخصام بعطف الصحف الفرنسية وتأييد الكتاب الفرنسيين ، حتى بعد أن تم الاتفاق الودي بين الدولتين في أول هذا القرن . ولكن الحرب العالمية الأولى ختمت هذا الطور وأنشأت طوراً ثالثاً للعلاقة بين بريطانيا العظمى والشرق الأدنى يمكننا أن نسميه طور العنف . بدأته بريطانيا العظمى بإعلان الحماية على مصر في أواخر سنة ١٩١٤ ، ثم استمر بعد الحرب يأخذ أشكالاً مختلفة من العنف واللين ، ومن القرب والبعد ، ولكنه يمتاز بشيئين خطيرين : أولهما أن سلطان بريطانيا العظمى الفعلي قد عظم واتسع ، ففرض الانتداب البريطاني على فلسطين وشرق الأردن والعراق . وكذلك لم تبق بريطانيا خصماً لمصر وحدها ، وإنما أصبحت خصماً لأقطار مختلفة من أقطار الشرق العربي .

الثاني أن فرنسا لم تحتفظ بموقف الصديق الذي يعطف من بعيد دون أن يتبني منفعة أو يحقق مآزياً ، وإنما شاركت في الغنيمة ففرضت انتدابها على سوريا ولبنان . وجعل الشرق العربي ينظر إلى الدولتين الغريبتين نظرة متقاربة ، يرى فيهما خصماً

قد اعتدى على حريته وحال بينه وبين ما كان يطمح إليه ويطمح فيه من الاستقلال. وهنا ظهر التفوق البريطاني ومهارة السياسة البريطانيين في سياسة الأمور الخارجية. فجعلت بريطانيا العظمى تعالج مشكلات الشرق العربي عنيفة مرة وريقة مرة أخرى، ولكنها صابرة ومصابرة دائماً، حتى ختمت هذا الطور الثالث بحل شيء من هذه الجزئيات حلاً جزئياً؛ فألغت حمايتها على مصر أولاً، ثم مازالت تداور وتناور حتى انتهت بعد خطوط كثيرة إلى إمضاء المعاهدة البريطانية المصرية سنة ١٩٣٦، وألغت الانتداب في العراق وعقدت معه معاهدة أيضاً، ولم تحتفظ بالانتداب إلا في فلسطين وشرق الأردن. وفي أثناء ذلك كانت فرنسا تضطرب في سياستها الشرقية اضطراباً خطيراً أقل ما يوصف به أنه لم يكن حازماً ولا عازماً ولا مخلصاً. جعلت فرنسا تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، تفرق لتسود، وتسود لتفرق، تظهر الإسماع حيناً ثم لا تلبث أن تعود إلى الأفق الضيق العنيف، تعرض المعاهدة ثم لا تلبث أن ترفضها. وبذلك فقدت السياسة الفرنسية ثقة الشرق العربي بها واطمئنانه إليها، وكسبت سوء الظن بها وشدة الشك في صدق نياتها.

وأقبلت الحرب العالمية الثانية، فاذا بريطانيا العظمى مطمئنة إلى الشرق العربي، وإذا الشرق العربي مطمئن إليها، قد أرضته بعض الرضا وأطمعته في الرضا الكامل متى وضعت الحرب أوزارها. وكان لحسن الصلة بين الشرق العربي وبريطانيا العظمى أثر غير قليل في الاحتفاظ لفرنسا بمكانتها في هذا الشرق. وقد كانت فرنسا حليفة لبريطانيا العظمى، ووفت بريطانيا العظمى لحليفها بعد المحنة وفاء لا شك فيه، كما وفي الجيرال دي جول وأصحابه للحليفة العظيمة وفاء لا شك فيه أيضاً. واستطاع الحلفاء البريطانيون والفرنسيون أن يطردوا النفوذ المحوري مع السلطان الفيشي من سوريا ولبنان. وعاش الشرق العربي كله على الوعود والأمان من جهة، وعلى الثقة بتحقيق الوعود والأمان من جهة أخرى متى وضعت الحرب أوزارها. وأدى الشرق العربي ثمناً غالياً جداً لما عاش عليه من الثقة والوعود والأمان، فضحى بكثير من مرافقه، وأعان بكثير من جهوده، واتخذ المحور لنفسه عدواً وعامله كما يعامل الأعداء، واكتأب وابتأس حين كانت الدوائر تدور على الحلفاء، واغتنبط وابتهج حين استوثق لهم الأمر وتم لهم هذا النصر العظيم.

وبذلك انتهى هذا الطور، وبدى بانتهاى الحرب الثانية طور جديد تضرره الأيام ولم يتكشف عنه الغيب بعد. أيكون طور وئام وسلام وتعاون، أم يكون طور صراع وخصام واختلاف؟ جواب هذا السؤال عند البريطانيين أنفسهم؛ فهم يعلمون حق العلم أن الشرق العربي ما زال لهم مكبراً وبهم واثقاً وعليهم عطفاً. وهم يعلمون أن الشرق العربي قد عرفهم أكثر مما عرف غيرهم، وألف التعاون معهم أكثر مما ألفه مع غيرهم. وهم يعلمون حق العلم أن الشرق العربي لا يضرهم شراً ولا يكيد لهم كيداً، ولا يجب شيئاً كما يجب تنظيم الصلة بينه وبينهم على أساس من تبادل الود والثقة والمنافع القريبة والبعيدة. ولكنهم يعلمون في الوقت نفسه حق العلم أن طبيعة الشرق العربي قد استردت صفاءها القديم وحمقاءها الذي نعمت به في وقت من الأوقات، وأن نفس الشرق العربي قد استيقظت من نومها ونشطت بعد فتور، واستردت شعورها القديم في العزة والكرامة، وأصبحت لا تطمئن لأن تكون تابعة، ولا ترضى بأن تكون مسودة ولا تستقر إلا إذا ظفرت بحقها الكامل في الحرية والكرامة والاستقلال، وبنصيبها الكامل من العدل السياسى الدولى، لتفرغ لتحقيق العدل السياسى والاجتماعى فى داخل أقطارها. وليس بينها وبين عايتها هذه الكريمة إلا عقبة واحدة، هى أن تفهم بريطانيا العظمى وينهم معها حلفاءها أن قيم الأشياء لم تتغير بالقياس إلى الغرب وحده ولا بالقياس إلى الأقوياء وحدهم، وإنما تغيرت بالقياس إلى العالم المتحضر كله، وأن أمم الشرق العربى قد انتهت من الرشد السياسى والثقة بالنفس والاعتماد على الجهد الخاص إلى حيث لا تستطيع أن تفهم حياة سياسية لا تحقق لها حريتها واستقلالها.

وقد كان نظام الاحتلال والتسلط السياسى شيئاً يمكن الاعتذار عنه قبل الحرب الماضية وبين الحربين، فأما الآن وقد تقرر نظام الأمن الاجماعى، وأصبحت الأمم المتحدة كلها ضامنة لاستقلال الأمم المتحدة كلها، فلم يبق للاحتلال ولا لسياسة التسلط معنى يمكن فهمه أو الاعتذار عنه. والخطر كل الخطر أن يحتفظ المنتصرون بتلك العقلية التى كانت تخيل إليهم فيما مضى أن من الممكن بذل الوعود والنكول فى التنفيذ؛ فقد أصبح هذا النوع من المزاح السياسى غير سائغ ولا محتمل.

ولبريطانيا العظمى مصالح اقتصادية وثقافية هائلة فى جميع أقطار الأرض

## بريطانيا العظمى والمرق الأدنى

وفي أقطار الشرق العربي خاصة . وأحسن وسيلة للمحافظة على هذه المصالح وتنميتها إنما هي الثقة المتبادلة والتعاون الصادق . وأعتقد أن من الممكن بل من الخير بل من اليسير جداً أن تبلغ بريطانيا العظمى بالثقة والمودة والاحترام المتبادل من تحقيق هذه المصالح وتنميتها كل ما تريد .

وما أشك في أن الشرق العربي كله لا يتمنى شيئاً كما يتمنى أن تلغى المشكلات السياسية بينه وبين الغرب طامة ، وبينه وبين بريطانيا خاصة ، وأن يستأنف عهد جديد تستقل فيه الأوطان العربية استقلالاً كاملاً صحيحاً ، وتعمل فيه مع الأمم الغربية ، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى ، على ترقية الحضارة الإنسانية وتقوية الصلات الثقافية ، وتنمية التبادل الاقتصادي ، وتحقيق هذا التعاون الخصب الذي ينتج للناس نفعاً وسلاماً وأمناً ، ويجنبهم أخطار التنافس الذي يقوم على الأثرة والكيد والمكر وسوء النية .

ولتحقيق هذه الغاية العليا ، يجب أن تخطو بريطانيا العظمى خطوة حازمة جريئة . وكل شيء يدل على أن الشعب البريطاني يود لو يخطو هذه الخطوة ، فيخلى بين أمم الشرق العربي وبين حقها الكامل في الاستقلال ، ويلغى هذه المشكلات التي إن دل بقاؤها على شيء فأنما يدل على أن الغرب لم ينتفع ، أو لا يريد أن ينتفع ، بهذه الدروس القاسية التي ألقمتها الحرب العالمية الأولى ، والحرب العالمية الثانية على الناس . وويل للناس إذا قدمت إليهم الموعظة ، ولم يتعظوا ، وأهديت إليهم العبرة فلم يحسنوا الاعتبار .